حياة عبد الحميد جودة السحار

ولد عبد الحميد جودة السحار في 25/ أبريل عام 1913م، في بيت صغير بحي العباسية وسط أسرة من الطبقة المتوسطة، مهنتها التجارة، و قد جاءت هذه الأسرة إلى مصر في أواخر القرن الماضي و أقامت بها منذ ذلك اليوم.

كانت الأسرة متدينة جدا، وملتزمة بالدين والتعاليم الدينية مع عقيدة راسخة والطقوسٍ الصحيحة، وكانت تألف الحب والمحبة والألفة، وكانت نساء الأسرة أيضا لا يخرجن من الإطار البيتي إلا لضرورة ملحة، حتى يذكر الدكتور صفوت في هذا السياق قصة من حياة عبد الحميد جودة السحار يقول: قال قائل: تولها الدكتور، و ارتسم الفزع على وجوه الجميع ، فما كان المغص يستدعى استدعاء طبيب لقد سقوها كل ما جاء في تذكرة داود, و كل ما أشار به العطارون و مدعو الطب، و ازداد ألم عمتي و أصبح جدي بين أمرين، أن يدع ابنته تموت، أو أن يستدعي الطبيب، فاختار أن يطلب طبيعا، و أن كان في قرارة نفسه يومن في طريق الأطباء لا يقود إلا إلى طريق القبر.[1]

على كل كان السلوك الإسلامي و أداء الواجبات الدينية من أهم واجبات الأسرة التي كان السحار ينتمي إليها، و لهذا الارتباط بالدين للأسرة أثر عظيم على حياة السحار و نشأته و تربيته ، حتى يقول بنفسه: "لم تكن تسمع في دورنا إلا الحرام و الحلال، فكنا نقيس أفعالنا بذلك المقياس ، و لم يكن أهلنا يرددون كلمة الحرام و الحلال بأطراف ألسنتهم، بل كانوا في أفعالهم يخشون أن يأتوا ما يغضب الله، فكانوا لنا قدوة، و قد غرسوا في أنفسنا منذ نعومة أظفارنا القيم الروحية ، فراح ينمو معنا وجدان أخلاقي للمجتمع حقة فكانت حياتنا متناسقة مع أوامر الدين و نواهيه".[2]

لاشك إن هذا التناسق مع الدين و أوامره و نواهيه قد جعل السحار يفكر في غالب الأحيان أن يغير الاجتماع، من هنا طبع جل كتبه بالطابع الخلقي الديني ، حتى إن الاجتماع كله يكاد ينطبع بالخلقيات و الاسلاميات.

إلى جانب الأسرة المرتبطة بالدين الذي ترك أثرا خاصا على ثقافة السحار، هنا جانب آخر هو أن والده و والدته كانا يبدلان أقصى جهدهما في تثقيف السحار بثقافة دينية محضة، لأن والدته كانت سيدة فاضلة لها جانب كبير في التاثير على الأسرة ، بينما كان أبوه على حد تعبير السحار رجلا رقيق القلب يذرف الدموع لأوهى سبب يمس وترا من فواده.

أما ما يتعلق بمراحله العلمية التي هي عنصر هام في حياة أي إنسان ، فإن أباه ألحقه أولا بالمدارس الخاصة، ثم انتقل منها إلى مدرسة سليمان جاويس الأولية بالدشطوني، ومنها انتقل إلى مدرسة الجمالية الابتدائية سنة 1921م، و قد مر خلال دراسته في المدارس بمراحل القسوة و العنف حتى كان يحب الموت أكثر منه الحياة ، و ربما يقال إن السبب في ذلك ما لاقى فيها من الضرب و الضجر و العنت الذي جعله بمقت التعليم و الدراسة لحين، لكن انتقاله إلى المرحلة الثانوية غير مجرى تفنير السحار إلى ناحية إيجابية، فقد شب عن الطوق و دخل في سن الشباب، فطبيعيا تغيرت المكونات الإنسانية جشما و فكرا.

ولم يزل يقطع مفازة التعليم مع كل مشقة و ضنك إلى أن دخل السنة الثالثة (البكالوريا)، ثم التحق بمدرسة التجارة العليا، من هذه النقطة اتجه إلى الأدب و شغف به شغفا، وأحب الترجمة و دأب على شراء الصحف و المجلات الانجليزية لينقلها إلى العربية، حتى تمكن من إرسال المقالات التي كتبها إلى الصحف للنشر، وهكذا كان يحب في المدارس أن يقرأ روايات "إبراهيم لنكولن" و"كرتيون العجيب" في باكورة سنه، لكن في الجامعة كان يهتم بالرويات أشد الاهتمام.

يقول الدكتور صفوت عن هذا: "استمر عاكفا على قراءة كل ما يصل إليه من قصص و روايات، سواء منها ما نشر في الصحف أو كان ضمن ما يصل إليه من كتب و مطبوعات ، فلما استقام له شأن الفن القصصي بدأ ينسر قصصه و هو طالب في الجامعة و كانت أول قصة قصيرة له "رجل البيت".[3]

ولا يمكن أن يغض الطرف عن مدى دور السينما في حياة عبد الحميد، فقد ظل بها مشغوفا ، و كان يتردد إليها مع أقرانه و أخوته كثيرا ، رغم المراقبة و العوائق الشديدة من الأم. وعلى حد قول السحار "كان يوم الأحد مخصصا لسينما الكوز مجراف، و يوم الخميس لسينما ايديال ، و يوم الاثنين لسينما الشعب ، و يوم الجمعة لسينما الكلوب المصري.

إن التردد إلى السينما قد أثر على قصصه و على طبيعته حتى نراه أنه قد أحرز كثيرا من السباقات في فن الرسم و التصوير و عرض الواقع ، حتى يخيل إليك أن القصة تعرض على الشريط السينمائي المرئي أو على الشاشة، في حالة أن تقرأها في الكتاب.

و مماثلا لذلك هنا عنصر أو ملون آخر قد لعب دورا كبيرا في توجيه حياته الأدبية، وهو هيامه المفرط بالمسرح، فقد كان السحار يواصل ليله بنهاره في مشاهدة المسرح.

إذا تدبرت في هذه المكونات لشخصية عبد الحميد و ذهبت إلى تحليلها تحليلا واقعيا لوصلت إلى النتيجة التي لامناص عنها، أن أي أديب – والتاريخ يذخر بالأمثلة من هذا القبيل – وحد هذا المجتمع المواتي له والموفر له جميع ما يحتاج إلى الانسان في حياته من ناحية أساليب الترفيه والتسلية، وجدته ينحى منحا جديدا في حياته، هكذا حدث لسحار أنه قد احتل على المكانة العليا في

تاريخ القصة بجميع أنواعها، و لو كان هنا نوع واحد من القصة لقلت إن الأمر ميسور، لكن براعة السحار الفنية في جميع أنواع القصص تجعل الفكر الانساني متحيرا لهذا.

يقول بعض النقاد: "إن النزعة القصصية قد ظهرت عنده على غيرها من سائر ألوان الفنون الأدبية فيما كان يعلج من موضوعات".[4]

حياة السحار الوظيفية:

بعد ما تخرج السحار في الجامعة التحق بوظيفة حكومية، واشتغل كمترجم في سلاح الطيران الملكي بألماظة، و قد لقي من حسن المصادفة جماعة من "اتحاد خريجي الجامعة" و تآلف معها للمطالبة بحقوق الموظفين، و أنشأ معهم شعبة للأدب التي تحمل مسئولية نشر الكتب التي تجود بها قرائح الشباب، و قد ضحى لتحقيق هذا الغرض جميع ما كانت تملك زوجته من الأسوار والحلي، لأنه لم يكن يتمتع بالأموال الطائلة، فمن ناحية كانت لزوجته مساعدة كبيرة لتمهيد الطريق للسحار نحو التسابق في مضمار الأدب والفن، و فعلا قد أشاد السحار كثيرا بمساعدة زوجته هذه، إن هذه اللجنة كانت في الواقع فرصة سانحة لتنمية مواهب الأدباء الشباب، و نضج الوعي الفني للأدباء، و قد ساهم في هذه اللجنة كثير من شبان ذلك العصر من الأدباء، أمثال نجيب محفوظ، و عبدالقادر المازني، و محمود تيمور، ونشر السحار كثيرا من مؤلفاته إلى آخر حياته.

وكان للسحار إلمام وجيز بالسياسة، وكان يمقت شديدا بقضية القومية المصرية وكان يبرز مفاسدها و يبين صراحة أن هذه دسيسة غربية تهدف إلى قمع الأخوة الاسلامية.

ومن سوء الحظ كان الأوضاع السياسية في عصر عبد الحميد جودة السحار مضطربة جدا و مليئة بالأحداث و الصراعات ، فقد شاهد في سنه المبكر الحرب العالمية الأولى و ما أنتجت من نتائج فادحة، و في جانب آخر أيضا لم تكن الأحوال الداخلية للسياسة المصرية هادئة مطمئنة، و أضيف إليها اندلاع ثورة 1952م ، إضافة إلى ما تركت سقوط الخلافة العثمانية من نتائج سيئة ، كل هذه الأحداث قد جعلت السحار يشمئز من السياسة المنحازة الظالمة إلى حد كبير، و قد أشار إلى بعض الجوانب السياسية الطاغية في تعض قصصه، و انتقد عليها انتقادا لاذعا غير مباشر، و كان يؤيد تلك السياسات التي تفيد مصلحة بلاده، يقول الدكتور صفوت نقلا عن كتاب السحار "هذه حياتي" :

"لم تكن اهتمامات السحار السياسية طارئة على حياته ، فقد كان معنيا بها منذ تلك اللحظة التي وعى فيها ما يدور في مجلس السلامك، ففيه امتص رحيق الفن و تجرع السياسة، (فقد كان نزلاء الليل يخوضون في السياسة اليومية ، قبل أن يقرءوا كتابا من كتب التاريخ أو كتب الأدب الحديث ، أو تفسير الأحلام ، و قراءة الطالع) فلما نضج وعيه و تعرف على ملامح الحركة و الصراع عزم على أن يعيش طليقا من قيود الحزبية و أن يؤيد كل عمل يستهدف مصلحة بلاده".[5]

وما زال ينتقل السحار من منصب إلى منصب ومن وظيفة إلى أخرى، في مختلف مجالات الحياة، واكتسب تجارب كثيرة من الممرات الحياتية و إن هذه التجارب التي اكتسبها من خلال الأحداث التي كانت تقع في الحياة العادية ، قد دفعته إلى حد كبير إلى العزلة النفسية و الانطواء على النفس ، و إن لم يكن قد لبس مسوح النساك و الأصفياء ، و كان السحار قد خاب ظنه تجاه المرأة لأنه قد رسب في الحب غير مرة، فأحب أولا فتاة ليسية، ثم تعلق بابنة عمه، التي يقول في صددها:

"لن تكون زوجتي إلا هذه الفتاة الواقعة إلى جواري على رصيف الترام إنها تستطيع أن تقطع على مشوار الحياة الطويل الشاق، سأفهمها و تفهمني ، و سيكون بيني و بينها شئ مشترك يخفف من وطء قسوة الأيام" .

كان عبد الحميد جودة السحار ينحدر من أرومة طيبة عريقة فكان يحتل على مكانة مرموقة من الأخلاق والسلوكيات الفاضلة ، و إن حياته أيضا عبارة عن هذا الجانب ، و إن معظم بل جميع كتبه تلتط بالأخلاق الفاضلة و السلوكيات النبيلة.

مات هذا القاص البارع الأديب الأريب اللبيب اللبق في 22 يناير عام 1974م بعد حياة حافلة بالايمان و الابداع.

ثقافته:

إن العصر الذي نشأ فيه عبد الحميد جودة السحار كان عصر الثقافات المتنوعة، و تأثرت الثقافة بعضها من بعض ، و امتزجت الثقافة العربية والغربية إلى حد لا يمكن الفصل بينهما، وإن انكماش العالم عبر المستحدثات الجديدة قد ساعدت في هذا المجال كثيرا ، كان الجماهير قد استقبلت الثقافة الأجنبية بكل حماس و نشاط ، و كان الحياة الانسانية ترى السعادة في اختيار الثقافة الأجنبية ، كانت كل ثقافة تتصارع للتغلب على الأخرى ، و قد اشتد ساعد الثقافة العربية بعد حركة الاحياء ، و كان هذه الثقافة العربية تشمئز كل الاشمئزاز عن الثقافة الدخيلة أو المستوردة، قد أثرت هذه الثقافات تاثيرا شديدا على حياة عبد الحميد، و إن السحار نهل من موارد متنوعة، و كانت اللغة الانجليزية لغة المدارس للتعليم و التربية.

و كما أشرت في الصفحات السابقة أن السحار كان مولعا بالسينما، وقد لعبت السينما من عواطف السحار كثيرا، وحيث الفنية و الموضوعية كان للسينما والمسرح أثرا كبيرا على حياة وثقافة السحار، وقد مر جودة السحار في حياته بطور كان يحب الموت فيه، واتفق المؤرخون جميعا أن الثقافة المدرسية قد تركت أثرا خاصا آنذاك على حياته و ثقافته حتى جعلته يحب الموت و يمقت الحياة ، و لكن سرعان ما انقشع هذا السحاب الحالك.

إن هذا العصر عصر الإعلام و الصحف، فكان للسحار علاقة وثيقة بالصحف و المجلات ، فقد كان يطالعها للاطلاع على أحداث العصر، فمن خلال الصحف اطلع على كثير من الأدباء أمثال عبد القادر المازني، محمود تيمور، يقول الدكتور صفوت عن مدى تاثير السحف على حياته:

"وهذا يدل على أن الصحف لعبت دورا كبيرا في تنمية وعيه الثقافي بصفة عامة و الأدبي بصفة خاصة، الأمر الذي يجعلنا نعد الصحف رافدا من أهم الروافد الثقافية أمدته بالثقافة و الوعي، و هي كما تبدو مختلطة العناصر بين عربية و أجنبية ".[6]

و إن السحار قد شهد في عصره كثيرا من الأعمال الفنية من المسرحيات و الأفلام، و قد عاشر فترة مع هذه الأعمال الفنية, و كما كان للمجالس الأدبية و الاجتماعية أثر كبير على الحياة الأدبية للسحار، فقد كان لتردده للسلامك (المجلس الخاص) و في جلساته الصباحية والمسائية ومشاركته فيها انفتاحا لموهبته الأدبية، و إن للحالة الاجتماعية العامة التي كان يعيشها السحار كانت لها أثر عظيم على أفكار السحار و آرائه، تلك الظروف التي كان يعيشها الكاتب، و إن روايات السحار لتنم عن هذه و إنه قد عبر في معظم رواياته عن الأوضاع المعاشة فيها ، وكان يرمي بالدرجة الأولى إلى تصوير الواقع بكل مساوئه و آلامه و مشكلاته.

و إن كانت حياة السحار وثقافته قد تأثرت إلى حد كبير بالثقافة الانجليزية، و لكن الارتباط الوثيق بالأسرة المتدينة الصالحة المتمسكة بالدين و تعاليمه بالمجموع قضى على جميع الثقافات الأجنبية و المستوردة ، و لهذا السبب أرى أن الاسلامية و الخلقية الفاضلة تتفجر من خلال رواياته و قصصه ، مهما كان الموضوع من الغرام والحب و ذكر الفتيات و هيامها، لكن كأنما الاسلامية و الخلقية شئ لا مناص منها.

الطابع الديني والخلقي في أدب السحار:

يعرف عبد الحميد جودة السحار في عالم الأدب والثقافة من حيث كاتب القصة الطويلة والقصيرة، إضافة إلى ما يختص به من الميزات والأسلوب الأدبي في عرض ما جريات السفر وأحداث الرحلات، فإنه يأتي بالمناظر أمام القارئ كأنه هو بنفسه حاضر الموقع ويشاهد الأحوال، و في هذا الصيف لايتخلى أدبه عن العناصر الدينية و روح الإسلام، كما ذهب إليه الأستاذ مأمون غريب واستطرد بقوله:

" يكتب (السحار) القصة الطويلة والقصيرة وأدب الرحلات بروح الأديب، وهو في الوقت نفسه يكتب القصة الدينية والبحث الديني بدافع من نزوغه الشديد نحو الدين".

ولكن الأسف الشديد لم يعن بهذا الجانب من الأدب حق العناية فنال السحار حظا وافرا من صيته ككاتب بارع و صاحب القلم البليغ، و أما الجانب الخلقي والإسلامي فذهب متروكا محظورا، مع أنه قد اختار هذا الطابع في جميع قصصه و رواياته، لذلك اندفعت إلى إبراز النواحي الخلقية والعناصر الدينية في قصصه و رواياته.

يقول الدكتور صفوت زيد:

"إن السمة الغالبة على أدب السحار تتجه اتجاها مباشرا نحو الاسلامية فكرا و منهجا و أنها سارت على امتداد عمره الأدبي تمثل خطا فكريا واضح الملامح ، و إن اختلف أشكال التعبير و تعددت ألوانه، فقد قدم للمكتبة العربية أعمالا عديدة تتصل في معظمها بالاسلام تاريخا و بحياة الرسول صلى الله عليه و سلم سيرة و مثلا و بحياة أعلام الصحابة قدوة و اقتداء".[7]

و من هنا أستطيع أن أوزع أدب السحار الاسلامي في أقسام كما يلي:

الأول: الموسوعة الضخمة عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، و هذه الموسوعة تهدف إلى تفسير التاريخ روحيا و أن يطهر ضمير الانسان من أردان المادية الطاغية، و قصص السيرة النبوية في أربع وعشرين قصة.

والثاني: سير الخلفاء الراشدين والصحابة، و هذه السلسلة تحتوي على أربع و عشرين قصة، و لم تكن كلها قصة محضة بل تكشف القناع عن جوانب مختلفة من حياتهم الطيبة، واستشف من أبعاد حياتهم المختلفة.

والثالث: روح الإسلامية في قصصه التاريخية ، إنه قد اختار المواضيع التاريخية من القرآن الكريم، والحديث النبوي، ومن التاريخ الاسلامي، وهذا الجانب هو أكثر غزارة بالجانب الخلقي و المناحي الاسلامية، و أرى شيئا آخر أنه من خلال تقديم التاريخ أراد أن يثبت التاريخ الاسلامي في أذهان الأطفال والناشئين بوجه خاص ويرسخه فيهم.

وهنا قسم آخر أستطيع أن أضيفه إلى هذه الأقسام، وهو أدبه القصصي، لا أقول إن هذا الأدب في كتبه القصصية و الروائية كلها طبعت بالطابع الديني و الخلقي، و لكن هناك أشياء كثيرة في

الكتب التي كتبها حول القصة و الرواية، تذهب بي بأن أجزم أن الدراسة الموضوعية لأي قصة من قصصه لا تكمل ريثما تسلط الأضواء على الجانب الخلقي و الطابع الديني فيها.

وهكذا يذكرنا قول مأمون غريب مرة أخرى حيث قال عن أسلوب السحار و فكرته و نزعته.